

الالتفات في القرآن الكريم: دراسة لنماذج من الآيات القرآنية
Pay Attention in the Holy Quran: Study for Models of
Quranic Verses

* نعيمة عزي

NAIMA AZI

مخبر الشعرية

جامعة الحاج لخضر باتنة 1 (الجزائر)

,University of Batna 1- Hadj Lakhdar

naima.azi@univ-bejaia.dz

تاريخ النشر: 2022/03/02	تاريخ القبول: 2021/09/09	تاريخ الإرسال: 2021 /06/ 30
-------------------------	--------------------------	-----------------------------

ملخص البحث

مما لا شك فيه أن البحث في موضوع الالتفات كموضوع من مواضيع الدراسات القرآنية سيعين على ظهور كثير مما خفي من الأسرار البلاغية للقرآن الكريم، فمن هذا المنطلق كان عنوان البحث "جماليات الالتفات في القرآن الكريم"، محاولين الإجابة عن الإشكالية التالية: إلى أي مدى يمكن الكشف عن جماليات أسلوب الالتفات في القرآن الكريم؟ وما هي صور الالتفات؟ وفيه تتجلى أغراضه البلاغية؟

الكلمات المفتاح: التفات؛ صور الالتفات؛ غيبة؛ خطاب؛ تكلم.

Abstract :

There is no doubt that research on the subject of attention as a subject of Qur'anic studies will be appointed on the appearance of many of the rhetorical secrets of the Qur'an, from this point of view the title of the research was "The aesthetics of attention in the Qur'an", trying to answer the following problem: to what extent can the aesthetics of the method of attention be revealed in the Holy Quran? And what are the paying attention pictures? And what are his rhetorical purposes manifesting.

Keywords: Be careful; Pay attention to images absence; Speeches; parlan .



* نعيمة عزي naima.azi@univ-bejaia.dz

المقدمة :

لقد بلغ أسلوب القرآن الكريم القمة في الفصاحة والبلاغة والبيان، ومما لا شك فيه أنّ البحث في موضوع الالتفات كموضوع من موضوعات الدراسات القرآنية له أهمية كبيرة؛ حيث يُظهر إعجاز القرآن الكريم وأسراره البيانية، خاصة إذا عرفنا بأنّ الالتفات يعدّ ظاهرة بلاغية جارية في الكلام العربي، وقد أفرد لها البلاغيون فصولاً في دراساتهم البلاغية، وانبرى له أساطين علماء البلاغة والتفسير، واهتموا به وأطلقوا عليه تسمية شجاعة العربية، لأن الرجل الشجاع يركب ما لا يستطيعه غيره، وكذلك الالتفات يختص باللغة العربية دون غيرها. ومن هنا جاءت هذه الدراسة لتكشف عن معنى الالتفات عند بعض البلاغيين، وسنحاول من خلال هذه الدراسة الكشف عن جماليات الالتفات في القرآن الكريم، وكذا عن صوره وأغراضه البلاغية.

1- تحديد مفهوم الالتفات في اللغة والاصطلاح:

1-1- الالتفات لغة:

جاء في لسان العرب: « لَفَتَ وجهه عن القوم: صرفه، والتفت التفاتاً والتفت أكثر منه، وتلفت إلى الشيء والتفت إليه: صرف وجهه إليه...ولفته يلفته لفتاً: لواه على غير جهته، والتفت عنه أعرض، قال تعالى: ﴿ قَالُوا أَجِئْتَنَا لِنَلْفِتَنَّا عَمَّا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا وَتَكُونُ لَكُمُ الْكِبْرِيَاءُ فِي الْأَرْضِ وَمَا نَحْنُ لَكُمُ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يونس 78]، واللفت لِي الشيء عن جهته»¹.

ويعرّف ابن فارس الالتفات بقوله: «اللام والفاء والتاء كلمة واحدة تدل على الليّ وصرف الشيء عن جهته المستقيمة»².

وفي أساس البلاغة يقول الزمخشري: « لفته عن رأيه، صرفته، وفلان يلفت الكلام لفتاً: يرسله عواهنه لا يبال كيف جاء ولفت اللّحاء عن العود قشره»³.

ونفس المعنى نجده عند الجوهري، إذ يقول: « اللفت: الصرف، يقال: ما لفتك عن فلان، أي ما صرفك عنه؟ واللفت لِي الشيء عن جهته، كما تقبض على عنق إنسان فتلفته، وأنشد من الكامل — ولفتن لفتات لهنّ خضاد»⁴.

ويعرّفه الخليل بقوله: « لفت اللفت لِي الشيء عن جهته، كما تقبض على عنق إنسان فتلفته، قال رؤبة:

يقتصل القصل بناب حداد ***** ولفت كسار العظام خضاد⁵

وجاء في القرآن الكريم: ﴿وَلَا يَلْتَفِتْ مِنْكُمْ أَحَدٌ إِلَّا أَمْرًا تَكُ﴾ [سورة هود، الآية: 81]

أُمرُوا بترك الالتفات بوجوههم لئلا يروا عظيم ما نزل بالكافرين من العذاب.

ومما سبق نخلص إلى أنّ للالتفات في اللغة معانٍ عدة، وهي:

- الصرف.

- ليّ الشيء عن جهته.

- الإقبال على الشيء.

1-2- الالتفات في الاصطلاح:

عدّ البلاغيون الالتفات من محاسن اللفظ، ورونق الأسلوب باعتباره فنا بلاغيا، ولقد عُرف

عندهم منذ القدم، فهو الانتقال من أسلوب إلى أسلوب آخر، مخالفا له، بمعنى أنّ الالتفات هو:»

التحويل في التعبير الكلامي من اتجاه إلى آخر»⁶.

ولقد وردت تعريفات كثيرة للالتفات واضطربت بين أقوال البلاغيين، ويعود السبب في ذلك

إلى التعريف اللغوي، فكما رأينا أنّ مادة (ل ف ت) تندرج تحتها دلالات لغوية كثيرة بعضها حقيقي

والبعض الآخر مجازي، كما أنّ البلاغيين أثناء حديثهم عن الالتفات هناك من أدرجه منهم ضمن

علم المعاني، وهناك من قال بأنه ينتمي إلى علم البيان ، وآخرون اعتبروه من المحسنات البديعية، فكل

عالم ورؤيته للالتفات، وتقسيمه إلى أنواع وصور، وسنقتصر في دراستنا هذه على ذكر بعض

التعريفات لبعض البلاغيين.

تجدر الإشارة إلى أنّ أبا عبيدة معمر بن المثنى من أوائل اللغويين الذين تحدّثوا عن

الالتفات، حيث يقول في " مجاز القرآن " : « ومن مجاز ما جاءت مخاطبته مخاطبة الشاهد ثم تركت

وحولت مخاطبته هذه إلى مخاطبة الغائب، قال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِمُ﴾ [الآية

22 سورة يونس] ، أي: بكم»⁷، الواضح أنّ أبا عبيدة أطلق تسمية الترك والتحويل للدلالة على

الالتفات⁸.

يرجع الفضل في إطلاق مصطلح الالتفات إلى الأصمعي، وهذا حسب ما ذهب إليه "

شوقي ضيف " ، في كتابه " البلاغة تطور وتاريخ، حيث قال: « ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إنّ الأصمعي

أول من اقترح للالتفات اسمه الاصطلاحي في البلاغة»⁹، حيث يُوي أنه سأل بعض من كان يتحدث إليهم: أتعرف التفاتات جرير؟ فقال له: لا، فما هي؟ قال:

أتَنَسَى إِذْ تَوَدَّعْنَا سُلَيْمَى ٠٠٠٠ يَعود بِشَامَةٍ، أَلَا سُقِّيَ الْبَشَامُ

طَرَبَ الْحَمَامُ بِذِي الْأَرَاكِ فَشَافَنِي ٠٠٠٠ لَا زِلْتُ فِي غَلَلٍ وَأُنْكِ نَاطِرٍ¹⁰

ولقد اعتبر ابن جني الالتفات ضربا من التوسع في اللغة العربية، وذلك بإحلال تعبير محل تعبير آخر، إذ يقول: «ولا بد لكل موضع من مواضعه نكتة وفائدة تختص به بجانب ما في التلوين الأسلوبي من تجديد نشاط السامع»¹¹، فهنا يشير ابن جني إلى نكتة الالتفات وفائدته التي تكمن في تنشيط السامع وإيقاظه للاستماع؛ ذلك أن النفس مجبولة على حب التغيير والتجديد، فإذا تم نقل الكلام من أسلوب إلى آخر كان أدعى للإقبال عليه، وتجدر الإشارة إلى أن ابن جني أفرد للالتفات فصلا في باب (شجاعة العربية) تحت اسم (فصل في الحمل على المعنى)، حيث يقول فيه: «اعلم أن هذا الشرح غور من العربية بعيد، ومذهب نازح فسيح قد ورد به القرآن، وفصيح الكلام منشورا ومنظوما، كتأنيث المذكر، وتذكير المؤنث، وتصور معنى الواحد في الجماعة، والجماعة في الواحد، وفي حمل الثاني على لفظ قد يكون عليه الأول أصلا كان ذلك اللفظ أو فرعاً أو غير ذلك»¹²، ولقد ضرب لنا أمثلة عن كل صورة من صور الالتفات التي ذكرها في كتابه، وكشف لنا عن الفائدة البلاغية وأسرارها البيانية في تغيير أسلوب الكلام من ضرب إلى ضرب آخر، فمثلا عن قوله سبحانه وتعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة 4]، يقول: «أي من الالتفات ذي النكات والأسرار: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ [الفاتحة 4]، هذا بعد قوله: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [الفاتحة 1]، فليس ترك الغيبة إلى الخطاب هنا اتساعا وتصرفا، بل هو لأمر أعلى، ذلك أن الحمد معنى دون العبادة، ألا تراك تحمد نظيرك ولا تعبد؛ لأن العبادة غاية الطاعة، والتقرب بها هو النهاية والغاية، فلما كان كذلك استعمل لفظ (الحمد) لتوسطه الغيبة، فقال (الْحَمْدُ لِلَّهِ) ولم يقل (ولما صار إلى العبادة التي هي أقصى أمد الطاعة) قال (إِيَّاكَ نَعْبُدُ) فخاطب بالعبادة إصراراً بها، وتقرباً منه، عز اسمه بالانتباه إلى محدودته منها»¹³.

ولقد عرّف الإمام الرازي الالتفات بقوله: «العدول عن الغيبة إلى الخطاب أو العكس»¹⁴، أمّا السكاكي فقال: «اعلم أن هذا النوع أعني نقل الكلام عن الحكاية إلى الغيبة لا يختص المسند إليه، ولا هذا القدر، بل الحكاية والخطاب والغيبة ثلاثتها بنقل كل واحد منها إلى

الآخر، ويسمى هذا النقل التفاتاً عند علماء المعاني¹⁵، وذكر في موضع آخر: «إنه قد ينتقل بالصيغة من الماضي إلى المضارع»¹⁶، وهذا ما أشار إليه أبو عبيدة سابقاً إثر حديثه عن صور الالتفات.

ونجد " العلوي " في الطراز يعرفه بقوله : « العدول من الغيبة إلى الخطاب، ومن الخطاب إلى الغيبة »¹⁷، في حين يرى الميداني بأن الالتفات عبارة عن: « التحول في التعبير الكلامي من جهات أو طرق الكلام الثلاثة: التكلم- الخطاب- الغيبة »¹⁸.

من خلال هذه التعاريف الاصطلاحية نخلص إلى أنّ الالتفات هو انتقال الكلام من صيغة إلى أخرى لغرض تنشيط السامع، والتأثير فيه، إلى جانب وجود نكتة أو سر يدعو إلى هذا الانتقال، فكل موضع سر يناسبه، ويدعو إلى الالتفات فيه، فهو من الأساليب البلاغية ذات اللطائف النفيسة.

2- صور الالتفات وأغراضه البلاغية: ينقسم الالتفات من الناحية العقلية إلى ستة أقسام هي:

الأول: الالتفات من الخطاب إلى الغيبة:

وردت في القرآن الكريم أمثلة كثيرة من هذا النوع من الالتفات، وسنقتصر في دراستنا هذه على ذكر بعض النماذج الواردة في القرآن الكريم، بالإضافة إلى أننا سنشير إلى الغاية من ذلك الالتفات، ومن ذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً، وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِي﴾ (92) وَتَقَطُّعُوا أَمْرَهُمْ بَيْنَهُمْ كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ(93) ﴿ [الأنبياء 92-93]، أي: «دينكم وملتكم التي يجب أن تكونوا عليها أيها الناس ملة واحدة، غير مختلفة، وهي ملة الإسلام، والأنبياء كلهم جاءوا برسالة التوحيد... وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ، أي وأنا إلهكم لا رب سواي فأفردوني بالعبادة »¹⁹.

تكمن فائدة هذا الالتفات في كونه ينعي عليهم ما أفسدوه إلى آخرين، ويقبح عندهم فعلهم، ويقبح عندهم عظيم ما ارتكبوه في دين الله، ويوتّجهم عليه، ثم يتوعددهم بأن كل هؤلاء إليه راجعون، فهو محاسبهم، ومجازيهم، فقال: ﴿كُلٌّ إِلَيْنَا رَاجِعُونَ﴾²⁰.

ومن ذلك أيضا قوله تعالى: ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُسَيِّرُكُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَيْنَ بِهِمْ بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَهَا الْمَوْجُ مِنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ لَئِنْ أُجِيتْنَا مِنْ هَذِهِ لَنَكُونَنَّ مِنَ الشَّاكِرِينَ ﴾ [يونس 22]، يبين الله سبحانه وتعالى النعم التي أسبغها على عباده؛ إذ سخر لهم البحر وأجرى الفلك فيه، والواضح من هذه الآية ورود التفات من الخطاب وذلك في قوله تعالى ﴿ حَتَّى إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ ﴾ إلى الغيبة في قوله تعالى ﴿ وَجَرَيْنَ بِهِمْ ﴾.

لقد فسر أبو السعود هذه الصورة، أي الالتفات إلى الغيبة بقوله: « والالتفات إلى الغيبة للإيذان بما لهم من سوء الحال الموجب للإعراض عنهم، كأنه يذكر لغيرهم مساوئ أحوالهم ليعجبهم منها ويستدعي منهم الإنكار والتقبيح»²¹.

كما ورد هذا النمط في سورة الملك في قوله تعالى: ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرٍ، وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ (الملك 17-18).

كما نجد في قوله تعالى: ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ جُنْدٌ لَكُمْ يَنْصُرُكُمْ مِنْ دُونِ الرَّحْمَنِ إِنَّ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴾ (الملك 20).

ففي الالتفات من الخطاب (فَسَتَعْلَمُونَ) و(جُنْدٌ لَكُمْ) إلى الغيبة (الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ) و(إِنَّ الْكَافِرِينَ) أعراض عنهم (أي عن الكافرين) وبيان قبائحهم لغيرهم، فضلا عن ذمهم بالكفر والغرور²².

كما ورد في قوله تعالى: ﴿ رَبَّنَا إِنَّكَ جَامِعُ النَّاسِ لِيَوْمٍ لَا رَيْبَ فِيهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ [آل عمران 9]، والغرض من هذا الالتفات هو إبراز كمال التعظيم والإجلال الناشئ من ذكر اليوم المهب الهائل. كما ورد في قوله تعالى: ﴿ قَالَ رَبِّ أَعْزِمْنِي بِالْحَقِّ وَرَبُّنَا الْمُسْتَعَانُ ﴾ [الأنبياء 112]، والغاية من هذا الالتفات هو تعجيل العذاب والتشديد على أهل مكة.

الثاني: الالتفات من الغيبة إلى الخطاب:

ورد هذا النوع أيضا في القرآن الكريم بشكل كبير، وملفت للانتباه، والأكد أن في كل التفات فائدة أو نكتة بلاغية، وفيما يلي سنقدم بعض النماذج الواردة في كتاب الله، مع الإشارة إلى الغرض من ذاك الالتفات.

ومن ذلك قوله سبحانه وتعالى: ﴿ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (1) الرَّحْمَنَ الرَّحِيمَ (2) مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ (3) إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ (4) اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ (5) صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ (6) ﴾ [الفاتحة 1-6].

إنّ المتأمل في قوله تعالى: ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ يجد أنّ هناك التفاتاً من الغيبة إلى الخطاب، وقد فسّر أبو السعود هذا بقوله: «﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾ التفات من الغيبة إلى الخطاب، وتلويح للنظم من باب إلى باب جارٍ على نهج البلاغة في افتتاح الكلام، ومسلّك البراعة حسبما يقضي المقام لما أنّ التنقل من أسلوب إلى أسلوب أدخل في استجلاب النفوس واستمالة القلوب يقع من كل واحد من التكلم والخطاب والغيبة إلى كلّ واحد من الآخرين...»²³، وهذا هو الهدف العام من الالتفات، أما بالنسبة للغرض الخاص من الالتفات في هذه الآية فقد عبّر أبو السعود عن ذلك بقوله: «ومما استأثر به هذا المقام الجليل من النكت الرائقة الدالة على أنّ تخصيص العبادة والاستعانة به - تعالى - لما أجرى عليه من النعوت الجليلة التي أوجبت له - تعالى - أكمل تميز وأتم ظهور بحيث تبدل خفاء ظهور بجلاء الحضور فاستدعى استعمال صيغة الخطاب»²⁴، وهذا ما تطلبه المقام.

أما الألوسي فقد أطل في بيان الأسرار والمعاني التي يدل عليها الالتفات في سورة الفاتحة حيث قال: «سر الالتفات من الغيبة إلى الخطاب وقد ازدحمت فيه أذهان العلماء بعد بيان نكتته العامة وهي التفنن في الكلام والعدول من أسلوب إلى آخر تطرية له وتنشيطاً للسامع، فقليل: لما ذكر الحقيق بالحمد ووصف بصفات عظام تميز بها عن سائر الذوات، وتعلق العلم بمعلوم معين خوطب بذلك ليكون أدل على الاختصاص والترقي من البرهان إلى العيان والانتقال من الغيبة إلى الشهود وكأنّ المعلوم صار عياناً والمعقول مشاهداً والغيب حضوراً»²⁵، ثم أطل رحمه الله في بيان تلك الأسرار والمعاني التي يدل عليها الالتفات في هذه السورة.

وأما الزمخشري فقال: «فإن قلت لم عدل عن لفظ الغيبة إلى لفظ الخطاب؟ قلت: هذا يسمى بالالتفات في علم البيان ... وذلك على عادة افتنائهم في الكلام وتصرفهم فيه، ولأنّ الكلام إذا نقل من أسلوب إلى أسلوب كان ذلك أحسن تطرية لنشاط السامع وإيقاظاً للإصغاء إليه من إجراءاته على أسلوب واحد، وقد تختص مواقع بفعائد، ومما اختص به هذا الموضع أنه لما ذكر الحقيق بالحمد، وأجرى عليه تلك الصفات العظام تعلق العلم بمعلوم عظيم الشأن حقيق بالثناء وغاية الخضوع والاستعانة في المهمات فخطوب ذلك المعلوم المتميز بتلك الصفات فقليل: "إياك" يا من هذه صفاته، نخص بالعبادة والاستعانة لا نعبد غيرك، ولا نستعينه ليكون الخطاب أدل على أن العبادة له لذلك التميز الذي لا تحق العبادة إلا به»²⁶.

كما ورد هذا النوع من الالتفات في قوله تعالى: ﴿وَأَقْسَمُوا بِاللَّهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ لَئِنْ أَمَرْتُهُمْ لَيُخْرِجَنَّ قُلُوبَهُمْ طَاعَةً مَعْرُوفَةً إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [النور 53].

يخبرنا الله سبحانه وتعالى في هذه الآية عن حال المنافقين؛ حيث أنهم كانوا يؤكدون مشاركتهم في القتال بالإيمان المشددة، فيردّ الله سبحانه وتعالى عليهم بأن المطلوب هو الطاعة المعروفة بين الناس، لأنه أدرى بما في القلوب، فهو العليم الخبير جلّ في علاه.

جاء هذا الإخبار بأسلوب الالتفات من الغيبة (وأقسموا) إلى الخطاب (ليخرجن)، ولقد علق الزمخشري على ذلك بقوله: « صرف الكلام عن الغيبة إلى الخطاب على طريقة الالتفات وهو أبلغ »²⁷، وهذا من لغرض تبكيته على حد قول الزمخشري.

نجد أيضا هذا النوع من الالتفات في قوله تعالى: ﴿لِيَكْفُرُوا بِمَا آتَيْنَاهُمْ فَتَمَتَّعُوا فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ﴾ [الروم 43]، في هذه الآية يخبرنا الله سبحانه وتعالى عما تنطوي عليه سرائر البشر، بحيث إن أنعم الله عليهم بخير جحدوا النعمة وأنكروا، وإن مستهم سوء دعوا الله، ولقد جاء هذا الإخبار بأسلوب الالتفات من الغيبة (ليكفروا بما آتيناهم) إلى الخطاب (فتمتعوا فسوف تعلمون)، والغرض من هذا الالتفات هو المبالغة على حد قول أبو السعود²⁸.

ومن هذا النوع أيضا من الالتفات قوله تعالى: ﴿إِنَّ لِلْمُتَّقِينَ عِنْدَ رَبِّهِمْ جَنَّاتُ النَّعِيمِ (34) أَفَنَجْعَلُ الْمُسْلِمِينَ كَالْمُجْرِمِينَ (35) مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ (36)﴾ [القلم 34-36].

في هذه الآيات الكريمة يخبرنا المولى عز وجل عن النعيم الذي ينتظر المؤمنين في الجنة، وهذا ليدحض إدعاء الكفار، الذين قالوا بأنهم أفضل حال من المؤمنين في الدنيا، وفي الآخرة سيكون كذلك، بل إن ساء حالهم سيكون كحال المؤمنين في الإنعام يوم القيامة، جاءت هذه الآية على أسلوب الالتفات من الغيبة (أفنجعل المسلمين كالمجرمين) إلى الخطاب (ما لكم كيف تحكمون)، ولقد وضع أبو السعود يده على الغرض الذي يرمي إليه هذا الالتفات أثناء تفسيره لهذه الآية الكريمة، إذ يقول: « ثم قيل لهم بطريق الالتفات لتأكيد الرد وتشديده (ما لكم كيف تحكمون) تعجبا من حكمهم واستبعادا له، وإيذانا بأنه لا يصدر عن عاقل »²⁹.

الثالث: الالتفات من التكلم إلى الخطاب:

تعتبر هذه الصورة من صور الالتفات الأقل ورودا في القرآن الكريم، إذ وردت في موضع واحد حسب ما ذكره البلاغيون، إذ وردت في قوله تعالى: ﴿وَمَا لِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ [يس

[22]، ولقد علّق حسن طبل على هذا الالتفات بقوله: « والواقع أنّ الالتفات في هذه الصورة مما يندر تحقّقه في لغة الكلام، وذلك للتوازي أو التباين التام بين موقعي الخطاب والتكلم»³⁰.

ففي الآية الكريمة التفات من التكلم (ومالي لا أعبد الذي فطرني) إلى الخطاب (وإليه ترجعون)، والغرض الذي ترمي إليه هذه الصورة هو تحذير القوم وتخويفهم بالمصير الذي ينتظرهم، ودعوتهم إلى الله.

الرابع: الالتفات من الخطاب إلى التكلم: هذه الصورة أيضا نادرة الحضور في القرآن الكريم، ومن أمثلتها قوله تعالى: ﴿ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴾ [يس 20-22]، ففي هذه الآية انصراف من الخطاب (يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ (20) اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُمْ مُهْتَدُونَ (21) وَمَالِي لَا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ)، والغرض من هذا الالتفات كما أشار إلى ذلك الزمخشري أثناء تفسيره هذه الآيات الكريمة بقوله: « ثم أبرز الكلام في معرض المناصحة لنفسه، وهو يريد مناصحتهم ليتلطّف بهم ويداريهم، لأنه أدخل في إحاض النصح، حيث لا يريد لهم إلا ما يريد لروحه»³¹.

الخامس: الالتفات من الغيبة إلى التكلم: ورد هذا النوع من الالتفات بشكل كبير في القرآن الكريم، وسنذكر هنا في هذه الدراسة بعض الآيات، فمن ذلك:

قوله تعالى: ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ فَأَنْشَرْنَا بِهِ بَلْدَةً مَيِّتًا كَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾ [الزحرف 11].

فسر صاحب " إرشاد العقل السليم بقوله: « ﴿ وَالَّذِي نَزَّلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً بِقَدَرٍ ﴾ بمقدار تقتضيه مشيئته المبنية على الحكم والمصالح، (فأنشرنّا به) أي أحيينا بذلك الماء (بلدة ميتا) خاليا عن النماء والنبات بالكلية، وقرئ ميتا بالتشديد، وتذكيره لأنّ البلدة في معنى البلد والمكان، والالتفات إلى نون العظمة إظهار كمال العناية بأمر الإحياء، والإشعار بعظم خطره (كذلك) أي مثل ذلك الإحياء الذي هو الحقيقة إخراج النبات من الأرض (تخرجون) أي تبعثون من قبوركم أحياء.

وفي التعبير عن إخراج النبات بالإنشاز الذي هو إحياء الموتى، وعن إحيائهم بالإخراج تفخيم لشأن الإنبات، وتهوين لأمر البعث لتقويم سنن الاستدلال، وتوضيح مناهج القياس»³²، فالغرض من هذا الالتفات هو إظهار كمال العناية بأمر الإحياء، والإشعار بعظم خطره.

وقوله تعالى: ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الإسراء:1]، وهذا الضرب من الالتفات جاء لغرض تعظيم الدلائل والمعجزات الإلهية.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ رَبُّنَا الَّذِي أَعْطَى كُلَّ شَيْءٍ حَلَقَهُ ثُمَّ هَدَى (50) فَمَا بَالُ الْقُرُونِ الْأُولَى (51) قَالَ عَلِمَهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى (52) الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ مَهْدًا وَسَلَكَ لَكُمْ فِيهَا سُبُلًا وَأَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ أَزْوَاجًا مِنْ نَبَاتٍ شَتَّى (53)﴾ [طه 50-53]، ولقد صيغ هذا الالتفات للتنبيه إلى دلائل قدرة الله ودقة تحكمه.

السادس: الالتفات من التكلم إلى الغيبة:

إنَّ المتأمل في كتاب الله سبحانه وتعالى يجد أنَّ هذا الضرب من الالتفات موجود فيه بكثرة، وسنقف على بعض النماذج من آي الذكر الحكيم، فمن ذلك قوله تعالى: ﴿سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزَّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَمَأْوَاهُمُ النَّارُ وَبِئْسَ مَثْوَى الظَّالِمِينَ﴾ [آل عمران:151]، ففي هذه الآية التفات من التكلم (سنلقي) إلى الغيبة في قوله تعالى (ما لم ينزل به سلطانا)، والغرض منه هو تقوية المهابة.

وقوله تعالى: ﴿طه (1) مَا أَنْزَلْنَا الْقُرْآنَ لِتَشْقَى (2) إِلَّا تَذَكُّرًا لِمَنْ يَخْشَى (3) تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَوَاتِ الْعُلَا (4)﴾ [طه 1-4]، والغرض البلاغي من هذا الالتفات في هذه الآية هو التخفيف عن الرسول صلى الله عليه وسلم، إذ أنَّ الله سبحانه وتعالى لم ينزل القرآن ليتعب أو يشقى رسولنا الكريم.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا جَنَّاتٍ مِنْ نَحِيلٍ وَأَعْنَابٍ وَفَجَّرْنَا فِيهَا مِنَ الْعُيُونِ (34) لِيَأْكُلُوا مِنْ ثَمَرِهِ وَمَا عَمِلَتْهُ أَيْدِيهِمْ أَفَلَا يَشْكُرُونَ (35)﴾ [يس 34-35]، والغرض من هذا الالتفات في هذه الآية الكريمة هو إظهار نعم الله على أهل الجنة والترغيب فيها والتشويق إلى نعيمها.

الخاتمة:

بعد الدراسة والتحليل توصلنا إلى النتائج التالية:

– الالتفات كظاهرة بلاغية لم تُدرَك أسرارها وجمالها إلا في ضوء دراسة شواهد القرآن الكريم ، وروعة بيانه وجمال أسلوبه.

- ينتشر أسلوب الالتفات بغزارة في آيات القرآن الكريم وبأنواعه المتعددة ومقاصده اللطيفة التي تكاد لا تخطر على قلب بشر،
- يمتاز الالتفات بكونه من الأساليب الجمالية الفنية التي تعبر عن أسرار وأغراض بلاغية لها تأثير في النفوس، ومن ثم فإن تنوع صور الالتفات في القرآن الكريم تُظهر إعجاز كتاب الله وأسراره البيانية.
- حظي الالتفات باهتمام البلاغيين منذ القدم.
- الالتفات هو انتقال الكلام من أسلوب إلى آخر، لأغراض بلاغية.
- للالتفات ستة أقسام، ولكل قسم فوائد عامة وأخرى خاصة، حسب سياق الآية التي يرد فيها.

هوامش:

- ¹ - ابن منظور: لسان العرب، مج2، تحق: عامر أحمد حيدر، دط، دار صادر، بيروت، لبنان، دت، باب التاء، مادة (لفت)، ص ص 84-85.
- ² - ابن فارس: معجم مقاييس اللغة، (1979)، ج5، تحق: عبد السلام محمد هارون، دط، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت لبنان، باب اللام، ص 258.
- ³ - جار الله أبي القاسم محمود الزمخشري: أساس البلاغة، (1998)، ج2، تحق: محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، باب اللام، ص 173.
- ⁴ - الجوهري أبو النصر اسماعيل بن حماد: الصحاح، (1979)، ط2، دار العلم للملايين، بيروت لبنان، ص 861.
- ⁵ - الخليل بن أحمد الفراهيدي: معجم العين، (1995)، تحق: مهدي المخزومي وإبراهيم السامرائي، طبعة جديدة، بيروت، لبنان، 8، (مادة لفت)، ص 221.
- ⁶ - الميداني عبد الرحمن حسن حبنكة الميداني: البلاغة العربية أسسها وعلومها، فنونها، (1996)، دار القلم، دمشق، ط1، ج1، ص 497.
- ⁷ - نفسه، الصفحة نفسها.
- ⁸ - شوقي ضيف: البلاغة تطور وتاريخ، (1965)، ط9، دار المعارف، القاهرة، مصر، ص ص 29-30.
- ⁹ - المرجع نفسه، ص 30.
- ¹⁰ - المرجع نفسه، ص 31.
- ¹¹ - أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، (2001)، ج2، تحق: عبد الحميد هندراوي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 179.

- ¹² - أبو الفتح عثمان بن جني: الخصائص، ج2، ص 180.
- ¹³ - أبو الفتح عثمان بن جني: المحتسب، (1998)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ص 146.
- ¹⁴ - الرازي فخر الدين: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، (1317 هـ)، مطبعة الآداب، القاهرة، مصر، ص 112.
- ¹⁵ - السكاكي، يوسف بن أبي بكر بن محمد: مفتاح العلوم، (دت)، طبعة مصطفى الباوي الحلبي، القاهرة، مصر، ص 118.
- ¹⁶ - نفسه، ص 95.
- ¹⁷ - العلوي اليمني: الطراز المتضمن لأسرار علوم البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز، (1974)، ج2، دط، دار الكتب الخديوية، مصر، ص 132.
- ¹⁸ - عبد الرحمن الحبينة الميداني: البلاغة العربية، (1996)، ج2، ط1، دار القلم دمشق، دار الشامية، بيروت، ص 479.
- ¹⁹ - محمد علي الصابوني: صفوة التفاسير، (1990)، ج2، البليدة، الجزائر، ص 274.
- ²⁰ - جار الله أبي القاسم محمود الزمخشري: الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، (1998)، تحق: الشيخ عادل أحمد عبد الموجود و الشيخ علي محمد معوض، ج2، مكتبة العبيكات، ط1، الرياض، ص 583.
- ²¹ - أبو السعود محمد بن محمد العمادي: تفسير أبي السعود المسمى إرشاد العقل السليم إلى مرآة القرآن الكريم، (دت)، دار إحياء التراث العربي، ج 9، دط، بيروت، ص 583.
- ²² - طالب محمد اسماعيل الزوبعي: من أساليب التعبير القرآني دراسة لغوية وأسلوبية في ضوء النص القرآني. ص 109.
- ²³ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج1، ص 42.
- ²⁴ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج1، ص 42.
- ²⁵ - الألوسي: روح المعاني، ج1، ص 89.
- ²⁶ - الزمخشري: الكشف، ج1، ص 56-57.
- ²⁷ - الزمخشري: الكشف، ج2، ص 73.
- ²⁸ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج5، ص 356.
- ²⁹ - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج6، ص 380.
- ³⁰ - حسن طبل: أسلوب الالتفات في البلاغة القرآنية، ص 116.
- ³¹ - الزمخشري: الكشف، ج3، ص 319.
- ³² - أبو السعود: إرشاد العقل السليم، ج6، ص 80.